الباب الاول

حركة التوسع العقيدى والحضارى والسياسى للاسلام

مقـــــدمة	ابعاد التوسع العقيدى والحضارى والسياسي للدولة الاســـلامية
الفصل الأول	عوامل نجاح حركة التوسع العقيدى والحضارى
الفصل الثانى	عوامل التفكك السياسي في الدولة الاسلامية

مقـــدمة

اقترن القرن السابع الميلادى (الاول الهجرى) بظهور الاسلام كآخر رسالة سماوية تنهى عددا من الرسالات الالهية ، في وقت كان العالم فيه مهيأ لنزول هذه الرسالة ، فالخلاف محتدم بين رئتى العالم المسيحى بيزنطة شرقا وروما غربا حول موضوعات على جانب كبير من الاهمـــية بعضها يمس الوحدانية الربوبية والالهية (١) في اخص صفاته جل شأنه ، وعلاقة الاب بالابن وصفات كل منهما ، وحول مبدأ الطبيعة الواحدة والطبيعتين المعروفة باسم Monophysite ، وبعضها يتناول الخلاف الايقونى حول مبدا وجود الصور والتماثيل في الكنائس . وقد عجزت المجامـــع التى عقدها كبار رجال الدين المسيحى عن ايجاد حلول لهذه المشكـــلات اللاهوتية بما في ذلك مجمع نيقية الذى عقد في ســـــنة ٣٢٥ م ومجمع خلقدونية الذى عقد في عام ٤٥١ م (٢) هذا بالاضافة الى انتشار الوثنية والمذاهب المجوسية في معظم الانحاء وفي مقدمتها بلاد العرب ، أما عن الديانةاليهودية فقد تاهت مفاهيمها في نسخ العهد القديم المتباينة وكتب انبياء بنى اسرائيل وفي مقدمتها التلمود ، كل ذلك جعل من الضرورة بمكان أهمية نزول رسالة جديدة ترد على هذه التساؤلات وتقضي على هـــذه المتناقضات وتفتح الطريق أمام البشر للايمان برسالة محمد عليه الصلاة والســـلام .

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم نبى هذه الامـــة قد وطد اركان الدولة الاسلامية عقائديا وفكريا وسياسيا وحضاريا واجتماعيـــا

---

(١) من أراد التوسع في هذا الجانب عليه قراءة كتاب تطهير الجنان : ابن حجر ص ١٢ وما بعدها .

(٢) للتوسع في هذه المجامع التى بلغ عددها واحد وعشرين مجمعا اقرأ Howell-Smith : A History of Roman Catholic Doctrine and Practice PP. 551—553.

في ظل دستور من الثروة القرآنية والسنة المحمدية فأن أولئك الذين خلفوه وتعلموا في مدرسته أن ينطلقوا بالدولة الاسلامية الى آفاقها بعد ان فتح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الباب على مصراعيه بالرسالات التى وجهها الى أقطاب العالم آنذاك والحملة التى جهزها قبل وفاته لغزو اطراف الشام بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة وتبناها أبو بكر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولعل اول ما خاضه المسلمون لبناء هذه الدولة ـ التى لم تكن لتغيب الشمس عن اراضيها والتى خاطب هارون الرشيد في ظلها احدى السحب قائلا « اذهبى وسيأتينى خراجك اينما توجهت » ـ الاحد عشر جيشا التى وجهها ابو بكر لقتال المرتدين في وقت واحد (٣) ، وما كاد ينتهى منها حتى انفذ خالد بن الوليد الى الحيرة كبداية للفتح الاسلامى في العراق وفارس وما والاها كما ارسل ابا عبيدة بن الجراح على راس اربعة جيوش الى الشام وفلسطين يقودها يزيد بن معاوية وعمر بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، ولم يمض وقت قصير حتى تقوضت املاك اكبر دولتين وقتذاك الفرس والروم ، واتجهت الجيوش العربية الى مصر ومن هناك تطلعت انظار المسلمين الى شمالى افريقية ، وخاض العرب عشر حملات في ستين عاما اوصلتهم الى شواطىء المحيط الاطلسي ثم امتدت تطلعاتهم عبر المضيق فاقتحموا شبه جزيرة ايبيريا وحكموا اسبانيا واقاموا حضارتهم العريضة في الاندلس ، ثم عبروا جبال البرانس يريدون احتلال بلاد غالة (فرنسا الحالية) وما وراءها . وفي نفس الوقت كانت جيوش الدولة الاسلامية واساطيلها تدق بمطارقها بيزنطة عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وكان من الممكن أن يتحول البحر الابيض المتوسط الى بحيرة اسلامية كما كان الحال في عهد الرومان ، ولكن غياب سياسة اسلامية واحدة اوقف هذا التقدم الى حد ما ، وان كان ذلك لم يمنع المسلمين من احتلال كل جزر البحر المتوسط بما فيها قبرص ورودس وصقلية .

أما التوسع الاسلامى نحو المشرق فقد بلغ أوجه في عهد الدولة الاموية وازداد اتساعا في عصور الدولة العباسية ، وكان أقصى ما وصل اليه الاتساع شرقا في عهد الدولة الاموية في خلافة عبد الملك بن مروان والوليد

---

(٣) ابن جرير الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ ٣ ص ٢٢٧ .

ابن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ، وحين تذكر عملية الاتساع الاسلامى شرقا فلابد ان يقترن ذلك بأسماء قيادات اسلامية لا تقل عن تلك التى أسهمت في عملية الاتساع الغربى مثل « عقبة بن نافع » و « موسي بن نصير » « وطارق بن زياد » و « عبد الرحمن الغافقى » ، فعلى الجانب الشرقى للدولة كان هناك « المهلب بن ابى صفرة » « وقتيبة بن مسلم الباهلى » الذى أوغل في بلاد ما وراء النهر حتى وصل الى دلتا « نهر جيحون » والممالك الواقعة قرب « نهر سيحون » المتاخمةلبلادالترك(٤) ، وكذلك « محمد بن ابى القاسم » الذى فتح بلاد الهند وتوغل في شبه القارة الهندية (٥) .

أما في عهد الدولة العباسية فقد تمكن محمود الغزنوى بين عامى ٣٩٢ ، ٤١٥ هـ من القيام بحركة جهاد دينى في اعماق بلاد الهند مستهدفا نشر الاسلام هناك حتى انه نذر على نفسه غزو الهند في كل عام (٦) وفي ذلك يقول المستشرق « ولسلى هيج » (٧) « ليس من شك في ان انتصارات الغزنوى في الهند جعلت بعض المؤرخين يعتبرونه سلطانا هنديا خالصا ، فقد فتح في خريف حياته اقليم البنجاب ، ونشر الاسلام في ربوع الهند ، وفتح طريقا سلكه بعده الكثيرون من خلفائه ، وكون المسلمون بفضل ذلك أسرا هندية خالصة » ويقول ستانلى لين بول(٨) S. Lane Poole « يمكن اعتبار حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم « لاهور » مقرا لهم البداية الحقيقة للحكم والوجود الاسلامى في هذه البلاد ، فقد مهدت الدولة الغزنوية في لاهور الطريق امام « محمد بن سام الغورى » (٩) وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهى ونشروا نفوذ المسلمين في أرجاء بلاد الهند الشمالية كافة » .

ويذكر ابن خلكان (١٠) ان محمود الغزنوى وصل في فتوحاته في

---

(٤) تاريخ الطبرى : الجزء السادس احداث سنوات ٩٣ ـ ٩٦ هـ .
(٥) فتوح البلدان : حـ ٥ ص ٦١٢ ـ ٦١٤ .
(٦) ابن خلكان : حـ ٢ ص ٨٥ .
(٧) Haig, W. : Encyclopaedia of Islam, Vol. II. P. 134.
(٨) S. Lane Poole : The Mohamadan Dynasties, P. 284.
(٩) حكمت الدولة الغزنوية بلاد افغانستان وهندستان من سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) الى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) .
(١٠) وفيات الاعيان حـ ٢ ص ٨٥ .

الهنـــد الى حيث لم تبلغه في الاسلام راية ، وبنى بها المساجد والجوامع مكان بيوت الاوثان والاصنام (١١) .

أما عن حركة الدعوة العقيدية فيحدثنا عنها باسهاب كتاب «الدعوةالى وجنوبا وشـمالا قاصرا على حركة الجيوش الاسلامية وحدها ، وانمـا اقترنت بذلك حركتان على جانب من الاهمية هما حركة الدعوة العقيدية وحركة التجارة الدولية في العصور الوســطى .

أما عن الدعوة العقيدية فيحدثنا عنها باسهاب كتاب « الدعوة الى الاسلام » الذى ألفه السير توماس ارنولد Sir Th. W. Arnold (١٢) والذى تناول فيه كيف انتشرت الدعوة الاسلامية بين الشعوب المسيحية في آسيا الغربية ومسيحيى أفريقية واوربا المسيـحية وفي مقدمتهـــا أسبانيا وفي فارس وأواسط آسيا والهند والصين وأرخبيل الملايـــو ، واكثر من ذلك يوضح لنا هذا المؤلف القيم كيف استطاع الاسلام أن ينتشر بين غزاته من المغول والتتار الذين قوضوا الدولة العباسية وقضوا عليها في ٦٥٦ هـ ــ ١٢٥٨ م .

أما عن حركة التجارة الدولية فيكفى أن نذكر أن المسلمين كانـــوا يسيطرون في العصور الوسطى على معظم الطرق التجارية الدولية ، وكانت العواصم والمدن الاسلامية في شتى أنحاء العالم تمثل عصب الحركـــة التجارية الدولية ، تلك الطرق التى جابها الرحالة والجغرافيون المسلمون ووصفوها لنا في مؤلفاتهم القيمة ، وفي مقدمة هؤلاء « محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطه » في كتابه « تحفة الانظار في غرائب الامصار وعجايب الاسفار » ، « ومحمد بن أحمد الشهير بابن جبير » في رحلتـه « تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار » ، « وأبو القاسم بن حوقل » في مؤلفـــه « المسالك والممالك » « وابو القاسم عبيد الله (ابن خرداذبة » في كتـابه « المسالك والممالك » « والمسعودى » في « مروج الذهب ومعادن الجوهر» « والمقدسي » في « أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » (١٣) .

---

(١١) للتوسع في هذا الموضوع يمكن الرجوع الى كتاب العتبى : تاريخ اليمينى وشرحه « الفتح الوهبى على تاريخ ابى نصر العتبى » .

(١٢) ترجمه الى العربية د. حسن ابراهيم حسن و عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى ويعتبر هذا الكتاب أفضل ما كتب الى الان في الدعوة الى الاســلام .

(١٣) اقرأ زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

ان مجرد الاطلاع على هذه المؤلفات يوضح لنا الى اى حد كـــان المسلمون يمثلون في هذه العصور اكبر قوة سياسية وحضارية واقتصادية عرفها التاريخ لدرجة انهم كانوا يتحكمون في هذه الطرق التجارية الدولية البرية والبحرية الرئيســـية وهى : ـ

الطريق التجارى من الصين والهند عبر الخليج العربى الى البصرة حيث تتوغل فروعه في قلب العالم الاسلامى الى بغداد وديار بكر ودمشق والموانى الاسلامية على البحر الابيض المتوسط واهم مراكزه التجـارية الاسلامية « هرمز » و « سيراف » و « قيس » و « البصرة » و « الابلة » و « بغداد » و « دمشق » و« حلب » (١٤) .

الطريق التجارى الدولى الثانى الذى كان يمر عبر البحر الاحمر مارا بموانى « عدن » و « جـــدة » و « ينبع » و « عيـــذاب » و « القلزم » و « الطور » و «بولاق » و « الاسكندرية » و « دمياط » و « رشيد » (١٥).

أما الطريق الثالث الذى كان يمر بقلب العالم الاسلامى في اواســـط آسيا مارا « ببخارى » و « سمرقند » و « بغداد » و « دمشق » و «حلب» وبقية الموانى الاسلامية على البحر المتوسط فقد كان المسلمون يسيطرون عليه سيطرة سياسية واقتصادية وامنية شـــاملة .

كل ذلك يوضح لنا الى اى حد كان المسلمون يشكلون اكبر قـوة مادية وسياسية وحضارية وروحية في العالم .

وهنا يجب علينا ان نتوقف لنحاول تحليل العوامل الكامنة وراء هـذا الكيان الواسع الذى لم ير له التاريخ مثيلا في مختلف عصوره ونحن لا ننكر قيام بعض الدول والامبراطوريات في العصور القديمة والوسيطة والحديثـة الا انها لم تكن تملك كل نواحى هذا الشـــمول العقيدى والفـكرى والمادى والتوسعى الذى كاد يغطى معظم أرجاء العالم المعروف وقتذاك ، وليس من شك في أن هذه الظاهرة التاريخية الفريدة استرعت انظار كثير من العلماء المسلمين والمستشرقين الذين تناولوا ذلك الموضوع بالدراسة والتحليل .

---

(١٤) Wilson, A. : The Persian Gulf, P. 102.

(١٥) Day Clive : A History of Commerce, P. 55.

الفصـــل الاول

عوامل نجاح حركة التوسع العقيدى والحضارى والسياسى

اولا : عدم التناقض بين العقيدة والفكر .

ثانيا : الاعتراف بالديانات الكتابية السابقة .

ثالثا : النظرة الشمولية للحياة في الاسلام .

رابعا : الافادة من الحضارات السابقة وامتصاصها .

خامسا : الاخذ بمبادىء العدل والحرية والمساواة .

سادسا : الدور الذاتى في الدعوة الى الاسلام .

سابعا : غلبة الايمان بالعقيدة على الحركات الانفصالية .

ثامنا : وحدة مصادر التشريع وارساء قواعد ونظم الحكم الاســـلامى بعد الهجـــرة .

« أولا » عدم التناقض بين العقيدة والفكر :

اهم ما يميز الاسلام أنه لا يقيم اية حواجز بين العقيدة والفكر الاسلامى، والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تتناول المعرفة في مختلف فروعها وتوجه الانسان المسلم الى التعميق في اغوارها والبحث في ادق تفاصيلها ولو اردنا أن نتعرض لهذه الآيات تفصيلا لما اتسع هذا الكتاب لذلك ولكننا نجتزىء من هذه الآيات أقل القليل لننتقل من الحديث الوصفى الى الادلة الموثقة .

يذكر القرطبى (١) نقلا عن ابن الطيب ان أول ما نزل من القرآن الكريم « اقرأ باسم ربك الذى خلق » الى قوله تعالى « الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل (٢) « ضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه اينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل » . وفي قوله تعالى « أفمن يعلم كمن لا يعلم » ، و « وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات والا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الاحياء ولا الاموات » (٣) .

اذا قارنا هذا بما حدث بعد ذلك بأكثر من خمسة قرون حين وقفت الكنيسة الغربية في روما موقف العداء من مناهج المدارس الفلسفية واحراق مؤلفاتها واصدار قرارات الحرمان ضد مؤلفيها ومنع جامعات العصور الوسطى من تدريسها ، أدركنا الى اى حد لم يكن هناك تناقض في المناهج العلمية بين العقيدة الاسلامية وبين الاخذ بكثير من العلوم العقلية حتى منها التى عربها علماء المسلمين عن اليونان والرومان وغيرهم .

ولم يكد يأت القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) حتى كانت الحضارة الاسلامية قد وصلت أوج عظمتها وكان من بين رواد العلوم العقلية علماء من مختلف الشعوب التى اعتنقت الدين الاسلامى في المشرق والمغرب الاسلاميين .

لقد أتاحت هذه السمة الواضحة للعقيدة الاسلامية أن يعتنق العديد من ملايين البشر الديانة الاسلامية ، بل ان نطاق معتنقى هذه العقيدة تخطى الحدود السياسية للدولة الاسلامية داخل الصحراء

---

(١) الجامع لاحكام القرآن حـ ١ ص ٥٩ .
(٢) آية رقم ٧٦ .
(٣) سورة فاطر آية ١٩ — ٢٢ .

الافريقية وعلى سواحلها الغربية والشرقية والجنوبية وفي اعماق القـــارة الهندية والسواحل الجنوبية والشرقية لآسيا وهى كلها من المناطق التى لم تطأها قدم جندى اسلامى واحد ولم تضمها ارجاء الدولة الاسلامية الشـــاسعة (٤) .

« ثانيا » الاعتراف بالديانات الكتابية السابقة :

كان اعتراف الاسلام بالرسالات والكتب السماوية السابقة عليـه واعتبارها من التنزيلات الالهية ، واحترام وتقدير رسلها وانبيائها من بين العوامل التى حببت الكثيرين من اصحاب هذه الديانات في الاســـلام ، وتوجيههم الى اعتناقه والاخذ بمبادئه ، فلم يحاول الاسلام ان ينســـخ ما سبقه من اديان او يقلل من شأنها او من شأن معتنقيها وانما على العكس من ذلك صور القرآن الكريم هذه الرسالات السماوية في احسن صورة ، ولذلك راينا الاعداد الغفيرة من الشعوب التى دخلها الاسلام تعتنقه عن رغبة وطواعية خاصة وان المسلمين لم يحاولوا فرض العقيدة بالسـيف او بالاكراه كما فعل من سبقهم وكما فعل من جاء بعدهم ، وانما كانـوا يتركون امر اعتناق الاسلام للرغبة الصادقة عن اقتناع وتفكير ، وكـــان الخراج والجزية على اهل الذمة يقابله العشر والزكاة عند المسلمين بـل كان يضاف على المسلمين ضريبة الدم والذود عن امن الدولة وحدودهـا وثغورهـــا .

ولقد ساعد على تفهم هذه الشعوب لمبادىء العقيدة انتشار اللغـة العربية بانتشار الفتوحات الاسلامية وتعلم هذه الشـــعوب لها وقراءة القرآن الكريم والاحاديث النبوية وكتب الفقه والشريعة .

وعلى الرغم من اختلاف الفقهاء وظهور المذاهب الاسلامية بظهـور الاجتهاد الا ان ذلك لم يصل في يوم من الايام الى حد الخلاف على المبادىء الاساسية للعقيدة وهو امر افتقدته كثير من العقائد الاخرى مما ترتب عليه اختلافات جذرية كان لها اسوأ العواقب .

ومن هنا كان اقبال الافراد والشعوب على اعتناق الاسلام واتساع

---

(٤) للتوسع في هذا الموضوع يمكن الرجوع الى كتاب « الدعوة الى الاسلام » للسير توماس آرنولد ترجمة حسن ابراهيم وعابدين .

رقعته وآفاقه ظاهرة تاريخية دعت الكثيرين من المستشرقين الى محاولات الاجتهاد في تفسيرها .

« ثالثا » النظرة الشمولية للحياة في الاسلام :

ان نظرة الاسلام الى الحياة الانسانية ـ مستمدة من الكتاب والسنة ـ تستبعد تماما نظرية الرهبانية في الاسلام وتجعل من العقيدة الاسلامية مظلة لكل ما يهم الحياة الانسانية من أمور الدين والدنيا ، ومن هنا تناول القرآن الكريم كل ما يمس جوانب الحياة والعلاقات بين الافراد في الاسرة والمجتمع والاهتمام بالجوانب الخلقية والسلوكية والثقافية لتكوين الشخصية الحضارية المسلمة مع التركيز على تقنين وتنظير كل هذه المعاملات في اطار من الرقابة التنظيمية المرتبطة بالمنهج العلمى الصحيح . واذا كان العرب قد أدركوا لاول وهلة دور هذا الدين الجديد في معالجة كل جوانب حياتهم الخاصة والعامة فان الشعوب التى انضوت تحت لواء الاسلام لم تلبث ان ادركت نفس الادراك ووجدت في العقيدة الاسلامية اجابة عن كل أمورهم الدنيوية والاخروية وتطويعا لكل مشاكل الحياة بما فيها الاحوال الشخصية والعلاقات الاجتماعية والمنطلقات الفكرية .

ومن هنا لم تجد هذه الشعوب في الاسلام سوى سلطة واحدة تشرف على الشئون الدينية والزمنية معا ، ولم يكن للدين الاسلامى رجال يحتكرون علوم العقيدة والشريعة والفقه ، وانما كان هناك علماء يتفقهون في علوم الدين دون ما تدخل بين الخالق والمخلوق .

« رابعا » الافادة من الحضارات السابقة وامتصاصها :

تفريعا على ما سبق أن ذكرناه من عدم التناقض بين الفكرة والعقيدة راينا الاسلام لا يرفض ما سبقه من نظم سياسية وقيم حضارية ونظريات علمية بل على العكس من ذلك استفادت الدولة الاسلامية من كل النظم والحضارات السابقة واضطر علماء المسلمين في سبيل ذلك الى اجادة اللغات الفارسية والهندية واليونانية واللاتينية ونقل تراث ومؤلفات هذه الحضارات والثقافات الى اللغة العربية ، ولم يكتف المسلمون بمجرد ترجمة ونقل هذا التراث وانما أضاف وحذف وابتكر كثيرا من الحقائق والمعلومات ويذكر المستشرق هاكنز Hakins

في كتابه عن دراسات في تاريخ العلوم في العصور الوسطى (٥) . ان عـددا كبيرا من المؤلفات اليونانية واللاتينية فقدت اصـولها ولم تعرفها جامعات أوربا في العصور الوسطى الا من خلال التراجم العربية التم تم معظمهـا في العصر العباسي الاول .

وليس من شك في أن تقدير الحضارة الاسلامية لما سـبقها من حضارات والدور الكبير الذى قامت به في التأثير على الحضارات الاوروبية الوسيطة والحديثة اكسب العقيدة الاسلامية تقديرا وحبا وانتشارا .

« خامسا » الاخذ بمبادىء العدل والحرية والمساواة :

اهتم الاسلام بابراز الشخصية الانسانية وتميزها على كل ما خلقه سبحانه وتعالى من كائنات أخرى ، مصداقا لقوله تعالى في سورة الاسراء « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (٦) .

ويرى كثير من علماء الفقه الاسلامى ان الوحدانية وهى اول أركان الاسلام الخمسة قصدت الى جانب اعلاء ذات الله سبحانه وتعالى وافراده بالصمدية ووحدة الالوهية الاعلاء أيضا من شـأن قدر الانسان وتنزيهه عن السجود لغير ذاته العلية لان في ذلك اهدار لكرامته وكيف يستطيع مفقود العزة والكرامة أن يسعى لتأصيل اى معنى من المعانى الحضارية في نفسـه .

وكان اصرار الرسول صلى الله عليه وسلم في فجر الدعوة من الدور المكى على تحرير المسلم من عبودية الجاهلية بمختلف صورها أول دروس الانسانية في ادراك مفهوم العدالة والحرية والمساواة ، ذلك الشعار الذى بدا المفكرون المعاصرون في نشره منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، بينما كان خليفة المسلمين الاول قد اقره في اول مادة من مواد الحـكم الاسلامى في خطابه الهام عشـية اختياره لخلافة الرسول صلى الله عليه وسـلم .

وكانت كل محاولة لنقض هذا المبـدأ بين الشـعوب التى اعتنقت

---

(٥) Studies in the History of Med. Scinece, P. 30.

(٦) آية رقم ٧٠ سورة الاسراء .

الاسلام تثير نقاشا وحوارا يرجع فيه الجميع الى المصادر الاصولية في الاســـلام من قرآن وحديث وسنة .

ويرجع كثير من المستشرقين المنصفين دوافع انتشار الاسلام بهذه السرعة المذهلة الى هذا المبدأ الاساسي من مبادىء الدولة في الاسلام .

« سادسا » الدور الذاتى في الدعوة الى الاسلام :

لم تعتمد العقيدة الاسلامية في انتشـــارها في ارجاء القارات على مؤسسات تنظيمية وارساليات تبشيرية وميزانيات معتمدة تســـتهدف اغراء الناس باعتناق الاسلام ، ولكنها اعتمدت على الجهود الذاتية المنبعثة عن عمق العقيدة في قلوب اصحابها نخص من هؤلاء علماء الاسلام.وفقهاؤه والرحالة والتجار والجغرافيون والمعلمون ، كما اعتمدت ايضا على اهتمام التجمعات الاسلامية بانشـــاء الجوامع والمساجد والمدارس والكتاتيب وغيرها من الابنية الدينية والتعليمية التى كانت تقوم اساسا على الجهـود الذاتية والتبرعات المادية والعينية .

ولعل مما يثير التساؤل عند كثير من المفكرين ظاهرة عمق العقيدة الاسلامية في بلاد لم تطأها قدم جندى اسلامى واحد في شرق وغرب وجنوب افريقية وجنوب شرقى آسيا حتى ان هؤلاء المسلمين خاضوا وما زالـوا يخوضون لعدة قرون حروبا ضد المستعمرين والاغلبيـات المسيحية على الرغم من عدم التكافؤ في المال والســـلاح .

ويصف المستشرق بيكر Beker (٧) هذه الظاهرة في افريقية انها ترجع الى ان عملية التبشير المسيحية المنظمة الممولة من المؤسسات الكنسية كانت ترتبط في اذهان الافارقة بالعملية الاســتعمارية مما كان يؤدى الى نفور الكثيرين منها ، بالاضافة الى عملية « التعميد » التى لـم يكن يتقبلها الافارقة بســـهولة اذا قورنت بسهولة وســـماحة ويسر اعتناقهم للاسلام حيث لم تكن تحتاج الى أكثر من النطق بالشـــهادتين واداء الاركان الاسلامية الاساسية .

فالدويلات الاسلامية في المغرب العربى لعبت دورها الكبير في نشر الاسلام في افريقية وتعمقه في الصحراء الغربية الموحشة بل ان دولـــة

---

(٧) Islam in Deutch-Ostafrica, P. 10.

الاغالبة في تونس لعبت دورا واضحا في نشر الاســـلام في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا وكذلك فعلت الدولة الاموية في الاندلس .

اما في المشرق فيكفى الحديث عن الدور الكبير الذى قامت به الدولة الغزنوية في الهند وكيف تسرب الاسلام من شبه القارة الهندية الى جزر جنوب وجنوب شرق آســـيا .

« سابعا » غلبة الايمان بالعقيدة على الحركات الانفصالية :

ليس من شك في أن الحركات الانفصالية عن جسم الدولة الاسلامية في العصر العباسى الثانى كان لها اثرها على قوة الدولة السياسية خاصة بعد ان سيطرت العناصر الدخيلة على عاصمة الخلافة تركية او بويهية او سلجوقية ولكن هذا التأثير لم يمتد الى الجوانب العقيدية والفكرية ، حتى ان القيادات الادارية والتنظيمية للدويلات الاســـلامية الشرقيـة والغربية كانت شديدة الولاء والانتماء للعقيدة الاسلامية حيث انها كانت تعتبر هذا الايمان جسر بقائها واستمرارها في قواعدها وكانت وسـيلتها الى تمكين هذا التعبير تكمن في الجوانب التاليـــة : ـ

١ ـ كثرة اهتمامها ببناء المؤسسات الدينية وفي مقدمتها الجوامـع والمساجد ومدارس تحفيظ القرآن الكريم وتدريس الفقـــه والحديث والشريعة واللغة العربية ونجد ذلك واضحا في الدويلات الاسلامية المستقلة كالطولونية والاخشيدية والايوبية والمملوكية . فقد كثر تشييد السـبل والتكايا ومدارس تحفيظ القرآن اضافة الى الجوامع والمســـاجد ، وما حدث في القسم الغربى من الدولة الاسلامية حدث في قسمها الشرقى .

٢ ـ الاهتمام باجتذاب الفقهاء والمحدثين وغيرهم من علماء الدين ، الذين ساعد اجتهادهم ومؤلفاتهم ومناظراتهم على تعميق وتأصيل العقيدة الدينية عند الناس لدرجة ان سمعة هؤلاء العلماء كانت تجذب اليهـــم التلاميذ والمريدين من مختلف انحاء العالم الاســـلامى وانتشرت المذاهب الفقهية خارج نطاق حدودها كما حدث بالنسبة للفقة المالكى الذى انتشر في شمالى افريقية والمغرب والاندلس وفقه الاحناف الذى انتشر في شرق العالـــم الاســـلامى .

٣ـ الاهتمام بنشر الديانة الاسلامية سواء كان ذلك بعمليات التوسع

التى سبق ان تحدثنا عنها في الهند وشرقى آسيا أو عن طريق الفقهاء والعلماء والتجار الذين نشروا العقيدة في المجاهل الافريقية والجزر المتناثرة فيجنوب شرقى آسيا .

وهكذا لم تكن للحركات الانفصالية تأثيرات عكسية على نشر العقيدة الاسلامية وشيوعها بل كانت على العكس من ذلك عاملا من عوامل انتشارها وذيوعها .

ثامنا :وحدة مصادر التشريع وارساء قواعد ونظم الحكم الاسلامى بعد الهجرة :

لدراسةهذا العامل لابد من الاشارة الى النقاط التالية :

(أ) وحدة مصادر التشريع في الاسلام .
(ب) الوحدانية والتكوين الحضارى للشخصية المسلمة .
(حـ) وضع الاصول التكوينية للمجتمع الاسلامى .
(ء) ارساء قواعد ونظم الحكم الاسلامى بعد الهجرة .

وفيما يلى تفصيل لهذه النقـاط :

أ ـ وحدة مصادر التشريع في الاسلام :

لقد انزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم موزعا على ثلاث وعشرين سنة منذ البعثة حتى الوفاة ، في مائة واربع عشر سورة تضم مائتين وأربعين ربعا في ثلاثين جزءا ، وتحوى بضعا وستة آلاف آية كريمة (٨) نزل بمكة منها سبع وثمانون سـورة . ونزل بالمدينة سبع وعشرون سورة بعدد غزواته صلى الله عليه وسلم (٩) . قام رسول الله باملائها على كتاب الوحى ووزعها وبوبها ورتبها قبل وفاته كما أوحى اليه على لسان جبريل عليه السلام وهى نقطة هامة يجب التركيز عليها حيث أن بعض غلاة المستشرقين حاول ان يضفى نوعا من الشكوكحول هذه الحقيقة التاريخية اسوة بما حدث لبعض الكتب السماية السـابقة مستغلين اختلاف بعض السلف ممن آثر قبل تدوين «المصحف الامام» (١٠)

---

(٨) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٦٥ .
(٩) بلغ عدد سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم سبع واربعون انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ، حـ ٢ ص ٦٢٥
(١٠) مصحف عثمان .

ان يقدم المكى على المدنى وقد نبه الى ذلك الشيخ ابو بكر الانبارى في كتاب « الرد » بقوله « ان الله سبحانه وتعالى انزل القرآن جملة الى سماء الدنيا ثم فرق على النبى صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل في امر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر يسأل ، ويوقف جبريل الرسول على موضع السورة والآية ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، كله من محمد خاتم النبيين عن رب العالمين فمن اخر سورة مقدمة او قدم سورة مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والكلمات وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ضعوا هذه السورة وضع كذا وكذا من القرآن الكريم » (١١) .

ولعل حرص الرسول صلى الله عليه وسلم في الا يحدث للقرآن بعض ما حدث للكتب السماوية الأخرى من ضياع وتغيير واختلاف امره لصحابته وكتاب الوحى الا ينشغلوا بتدوين غير القرآن حتى ما كان من احاديثه صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١٢) .

من اجل ذلك كان القرآن الكريم وما يزال المصدر الرئيسي الذى لا يختلف عليه اثنان وحتى في بعض الاوقات التى انفرط فيها عقد الوحدة السياسية الاسلامية وتعددت الفرق والملل والنحل والاحزاب والدويلات ظل القرآن الكريم المصدر الرئيسي الذى لا يتغير والدستور الملهم الموحد اينما وجد المسلم في ظل دولة اسلامية او غير اسلامية . وكان المختلفون سياسيا وحزبيا وانتمائيا يحاولون قدر الامكان دعم وجهات نظرهم بالقرآن فلا اصحاب الفكر الملتزم من طلاب المنهج المدرسي ، ولا اصحاب الفكر العقلانى من طلاب المنهج الفلسفى يختلفون حول المصدر الرئيسي الذى يحاول كل فريق منهم ان يتخذ منه سندا لشرعية تفسيره للامور اضافة الى السنة الكريمة والاحاديث الصحيحة .

هذا المصدر الموحد للتشريع في الدولة الاسلامية منهجا ونظاما ومرجعا كان أعظم العوامل في ظاهرة القوة والتوسع والانتشار التى صاحبتها لم يتأثر بالضعف السياسي الذى انتابها في بعض مراحل وجودها وانما كان في

---

(١١) القرطبى : الجامع لاحكام القرآن حـ ١ ص ٦٠
(١٢) سورة الحجر : آية رقم ٩

كثير من الاحيان يشكل عامل التوازن بين الصـــعود والافول في المجـــالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ويفسر المعـادلات الصعبة التى كانت تنشأ في ازمنة اخرى ، بل انه كان الزاد الذى تنهل منه الاقليات الاسلامية اينما وجدت ، مما ادى الى حقيقة تاريخية وحيدة وفريدة ومحيرة هى قدرة المسلمين على الصمود اينما وجدوا واينما كانوا .

ولقد شرع القتال والجهاد على المسلمين في القرآن الكريم في مواضع متعددة دفعتهم الى توسيع رقعة الدولة الاسلامية عاما بعد عام ، في حالة الدفاع عن النفس كما جاء في قـوله تعـالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . ومن اجل استرداد الحق عملا بقوله « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنـا الله » . ولنصرة المظـلوم حيث قال جل شأنه : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » . كمـا شرع القتال والجهاد لـواد الفتنة « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنـة ويكون الدين لله » . والقتال والجهاد في سبيل الله للاعلام بالاسلام والاستشهاد في سبيل الدعوة كان علم الجيوش الاسلامية اينما اتجهت كما جاء في الآية الكريمة « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما » .

ب ـ الوحدانية والتكوين الحضارى للشخصية الاسلامية :

الوحـدانية ركن أساسي من أركان الاســـلام ، وهى الى جانب ما تستهدف من عظمة وانفراد الله سبحانه وتعالى بربوبيته والوهيته وصفاته التى لا يدرك كنهها الا هو تستهدف ايضا اعلاء قدر الانسان وتفضيله على غيره من مخلوقات الله فالسجود للأوثان والاصنام وغيرها من المخلوقات الالهية والمصنوعات الانسانية اهدار لكرامته وانقاص لآدميته ووصل الامر الى ان بعض الفقهاء يرون في الرياء والنفاق لونا من الوان الشرك بالله لان الله سبحانه وتعالى خلق الانسان وميزه على غيره من الكائنات ومن هذه النقطة الهامة في الفهم الاسلامى تبرز حقيقة وجود الشخصية الحضارية الاسلامية الرافضة لكل معنى من معانى الرق والاستعباد واستعذاب كل اذى قد يصادفه في سبيل تحقيق هذا المصير . وهكذا جاء رسـول الله صلى الله عليه وسلم ليضع المسلمين على اول طريق الحرية والمساواة واحترام آدمية

الانسان ومن هنا كانت وقفة السابقين من المعذبين في الاسلام ضد أسيادهم السابقين ، والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الدعوة للاسلام والاستشهاد في ميادين القتال في غير نكوص او ادبار عملا بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأويه جهنم وبئس المصير » (١٣) .

وحين يصل المرء الى حقيقة التعرف على شخصيته في اطار عقيدة تحترم وجوده وكيانه واستقلاله وحريته يصعب على اية قوة مهما كان حجمها أن تقف في طريقه ، وهكذا كان اكتشاف المسلمين لحقيقة شخصيتهم في ظلّ الاسلام عاملا اساسيا في ظاهرة التوسع الاسلامى الشمولى عقيديا وسياسيا وعسكريا وحضاريا .

حـ ـ وضع الاصول التكوينية للمجتمع الاسلامى بوجه عام :

لعل اهم ما يلفت نظر الباحث في العقيدة الاسلامية ان من بين المائة واربع عشرة سورة التى يتضمنها القرآن الكريم سبع وثمانين سورة نزلت كلها في مكة اى في فجر الدعوة كلها تتجه الى ارساء وتكوين المجتمع الاسلامى فيمختلفجوانبه ، لم تترك شاردة او واردة الا وتناولتها بالتوجيه والتوضيح الكامل فالجوانب الخلقية والسلوكية لها اياتها التى ركزت عليها ، والعلاقات الانسانية والمعاملات الخاصة والعامة لهامضامينها ، وقواعد الاحوال الشخصية واركان العبادات فصلت تفصيلا ، والدعوة الى العلم والمعرفة الشاملة في مختلف جوانب الحياة قضت على كل ما يؤدى الى تناقض بين العقيدة والعلم ، كل ذلك في آيات محكمات رائعات تكونت منها الصفوة القائدة في كل المجالات .

---

(١٣) سورة الانفال آية رقم ١٥ ، ١٦

اهتم المستشرقون بتفسير هذه الآية الكريمة لانهم وجدوا فيها اجابة لكثير من التساؤلات عن أسباب انتصار المسلمين في كثير من الغزوات على اعدائهم على الرغم من ضآلة عددهم فى معظم الاحيان وقلة عددهم وبداءة أسلحتهم خصوصاعندما تتفق الروايات الاجنبية مع الروايات العربية فى وصف هذه المواقع واهتم المستشرق الايطالى امارى فى كتابه عن تاريخ المسلمين فى جزيرة صقلية بتحليل هذه الظاهرة وقال ان المسلمين كان يحرم عليهم الأدبار أو النكوص على أعقابهم متى بلغ عددهم « الزحف » اى اثنا عشر الف ، ومن هنا كانت تكمن الاسرار العميقة وراء هذا الصمود في القتال الذى أثار دهشة المؤرخين .

ولعل ابرز ما يسعى اليه المصلحون اليوم ـ على الرغم مما بلغه الانسان من حضارة علمية وتقنية ـ هو البحث عن مضامين خلقية وسلوكية وعقيدية تحول بين هذا التطور الهائل وبين هاوية السقوط او الانفجار . لقد استطاع الاسلام ان يضع القواعد لكل هذه الاصول التكوينية في المجتمع الاسلامى فاندفع بكل الطاقات خارج الجزيرة العربية الى كل اطراف الارض .

انظر الى قوله تعالى لتنظير القيم الاخلاقية والسلوكية في المجتمع الاسلامى على سبيل المثال لا الحصر : «انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بأيات الله» . « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، «وجادلهم بالتى هى أحسن » ، « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا » ، « ادفع بالتى هى أحسن السيئة » وقوله في وصف المؤمنين « الذين هم في صلاتهم خاشعون » ، « الذين هم عن اللغو معرضون » ، « الذين هم للزكاة فاعلون» ، « الذين هم لفروجهم حافظون » وحين ينصح لقمان ابنه يقول : « يا بنى أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير » ، وقوله تعالى « لا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم » .

وتناول القرآن الكريم العلاقات الاسرية والاجتماعية والانسانية بصورة لو تحققت لمجتمع كان خير المجتمعات تكوينا وانشاءا .

د ـ ارساء قواعد ونظم الحكم الاسلامى بعد الهجرة :

واجه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته الى المدينة عددا من القضايا العامة منها ما يتصل بالوحدة التكافلية بين المهاجرين والانصار ، والوحدة الوطنية بين المسلمين واهل الذمة ، ومنها ما يتصل بالجهاد في سبيل الله ، ونظام الحكم في الدولة الجديدة ، مما جعل من السور المدنية في مجملها تفصيلا لما سبق اجماله في الدور المكى في هذه القضايا وغيرها ، وان مجرد النظر الى اول صحيفة وضعها الرسول لمجتمع المدينة والموضوعات التى تناولتها (١٤) يدرك الى اى حد ارسى رسول الله دعائم الدولة الاسلامية في قواعد وبنود ساعدته صلى الله عليه وسلم في اجتياز الصعوبات التى صادفته في الداخل والخارج ، فالى جانب التنظيم الدقيق

(١٤) ابن هشام : سيرة النبى حـ ٢ ص ٩٤ ـ ٩٨

للحقوق والواجبات المفروضة على كل مواطني المدينة ، والعهود والمواثيق التي ارتبط بها ، كانت هناك الغزوات والسرايا التي توج بها بنيان هذه الدولة قبل وفاته مما اتاح لمن اتى بعده الانطلاق بها في مختلف الميادين .

كما ان نظرة الاسلام الى الحياة الانسانية ـ مستمدا من القرآن والسنة ـ تستبعد تماما فكرة الرهبانية وتجعل من العقيدة الاسلامية مظلة لكل ما يهم الحياة من امور الدين والدنيا متخطيا بذلك كثيرا من الاخطاء التي وقعت فيها المسيحية فلم تكن هناك سلطة زمنية وسلطة روحية ، ولم يكن هناك رجال دين ولم يكن هناك صدام بين الفكر المدرسي والفكر الفلسفي وانما اتجه الاسلام الى ادماج السلطتين واصبح خليفة المسلمين يمثل الجانبين الزمني والشرعي واشترط فيه العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس ، وكان من اهم واجباته الحفاظ على امن الدولة الاسلامية في الداخل وحماية حدودها في الخارج ، كما اعترف الاسلام بعلماء الدين وليس برجال الدين والفرق بينهما واضح ، ووقف المنهج العقلي عند علماء الكلام وفلاسفة المسلمين يستمد قوته من الاعتماد على اركان الشريعة الاسلامية ، وحتى عندما ظهرت الفرق والاحزاب والدعوات المختلفة كان كل منها يحاول ابراز انتمائه الى الاصول والقواعد الاسلامية حتى لو اضطر الى الدعاوى والاختلاق ومن هنا كانت خصوبة الاسلام حتى في احرج فترات الانقسامات السياسية والحركات الانفصالية ، ولم يقتصر حمل رسالة الاسلام على جنوده وقواته وانما تعدى ذلك الى الدعاة والوعاظ والفقهاء والتجار وغيرهم .

الفصـــل الثـانى

عوامل التفكك السياسى فى الدولة الاسلامية

- **العوامل الداخلية :**

اولا : الخلافات الحزبية والمذهبية .

ثانيا : العصبيات القبلية .

ثالثا : الشـــــعوبية .

رابعا : طموحات العناصر الدخيلة .

خامسا : ظهور العديد من الدويلات الاسلامية المستقلة .

سادسا : عدم الادراك الواعى لفلســفة العقيدة والفكر الاسلاميين .

- **العوامل الخارجية :**

اولا : العدوان المغولى والصليبى والاستعمارى .

ثانيا : حركة الاستشراق .

ثالثا : بعد مسافة التخلف بين الدول الصناعية والدول الاسـلامية النامية .

تعرضت الدولة الاسلامية لبعض عوامل الضعف والتفكك والاضمحلال منها ما هو داخلى ذاتى : كالسبئية والعصبيات القبلية وحركات الخوارج والقرامطة والزنج والباطنية والشعوبية والزندقة والحركات الانفصالية واطماع العناصر الدخيلة ، ومنها ما هو خارجى مادى عدوانى كالغارات المغولية ، والحركات الصليبية والمد الاستعمارى والعدوان الصهيونى ، ومنها ما هو خارجى فكرى كالايدلوجيات المستوردة والاتجاهات الفكرية المنحرفة وافتراءات بعض المستشرقين .

العوامل الداخلية :

اولا : الخلافات الحزبية والمذهبية

كانت السبئية المنطلق المذهبى لبعض الحركات الشيعية المتطرفة ، وفي مقدمتها الكيسانية والرافضة والقرامطة وغيرها ، والسبئية نسبة الى « عبد الله بن سبأ » وهو يهودى من أصل يمنى ادعى الاسلام وبدأ يستغل المرارة التى كانت عند بعض العلويين الذين كانوا يؤمنون بأحقية سيدنا على بن أبى طالب في الخلافة وينحرف بها الى منعطفات واتجاهات رفضها الامام رفضا قاطعا وكذلك انصاره ، ومن بين المبادىء التى اطلقها مبدأ الرجعة والوصاية والحلولية وانفراد على بالامامة ، وقد انضوى تحت لوائه كثير من السطحيين المتعصبين الذين لعبوا دورا كبيرا في اثارة الامصار الاسلامية على الخليفة الثالث عثمان بن عفان لدرجة ان بعض المؤرخين يؤكدون ان عبد الله بن سبأ لم يترك قطرا من الاقطار الاسلامية الا دخله مثيرا الرأى العام على « عثمان » ، وكان لبقا ذكيا لماحا استطاع في فترة ما ان يطوى صحابيا جليلا « كأبى ذر الغفارى » في الشام ويجمع الفقراء من حوله (١) . ثم انتقل الى البصرة الى ان طرده منها عاملها « عبد الله بن ابى عامر » فرحل الى الكوفة ، وعاد ثانية الى الشام ومنها الى مصر حيث اخذ ينشر دعاويه المنحرفة في لباس من الدين وأخذ يروج لنظرية التفويض الالهى التى عرفها في اليمن من خلال السيطرة الفارسية ، واستطاع بأساليبه المعسولة ان يصل الى بعض اهدافه في صبغ مذهبه السبئية الذى كان يدعو له بصبغات يهودية ومجوسية وفارسية ، وكان انصاره في مقدمة المحاصرين « لعثمان بن عفان » بل ان واحدا ممن كانوا يؤون ابن سبأ في بيوتهم هو الذى رفع اول ضربة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب حـ ١ ص ٤٣٩

على قارىء القرآن « عثمان بن عفان » . ومهما يكن من امر فقد كان على بن ابى طالب برىء من هؤلاء الخارجين على سماحة الاسلام (٢) .

والحقيقة انه على الرغم من الجهود المضنية التى بذلها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيلة حياته لتحقيق الوحدة العقيدية للمسلمين ، وتغليب العقيدة الاسلامية على ما عداها من الصراعات الحزبية او المطامع الدنيوية ، فانه ما كاد ينتقل الى الرفيق الاعلى حتى بدأ خلاف بين الانصار والمهاجرين حسمه الصحابة فورا بولاية ابى بكر رضى الله عنه ، واستمرت هذه الوحدة في عهد عمر بن الخطاب الى ان تفجرت بعض مظاهر الخلاف في عهد الخليفة الثالث وانتهى الامر باستشهاده ، ثم فتح الباب على مصراعيه بين الامام على والمعترضين على بيعته الى ان حسم الموقف لصالح معاوية بن ابى سفيان

ويجب هنا ان نستوضح حقيقة سبق ان ذكرناها ونحن نتحدث عن عدم التناقض بين التطورات السياسية وازدهار وتقدم الحضارة الاسلامية وهو ما نؤكده الآن وسوف نؤكده في كل مناسبة وهو ان اية خلافات سياسية او مذهبية او فكرية كانت تطرأ على ساحة الدولة الاسلامية لم يكن لها اى ارتباط مع وحدة العقيدة والتمسك بها بل وصل الامر الى حد استشهاد كل اصحاب مذهب بمصادر الشريعة الاسلامية من قرآن وحديث وسنة ، وعندما وصل الحوار الساخن بين الملتزمين من انصار المنهج المدرسي عند اهل السنة، وانصار المذهب الفلسفى من المعتزلة والكلاميين ، كان كل طرف يحاول ان يؤكد انتماء فلسفة تفكيره الى الاصول العقيدية الخالصة والمتفق عليها .

نقول ذلك لان بعض السطحيين يتصور في تسجيل المؤرخين لبعض الحقائق التاريخية في التاريخ الاسلامى خاصة ما يرتبط منها بالخلافات المذهبية أو الفكرية او العصبية ما قد يؤدى الى التشكيك في قدرة الاسلام على التصدى لهذه الخلافات مع أن الدليل الحى الواضح أمامنا انه رغم الاختلافات العديدة على مدى القرون الاربعة عشرة الماضية حول كثير من الموضوعات السياسية والمذهبية والفكرية مازال القرآن الكريم هو القرآن الكريم ، لم يتغير ولم يتبدل وصدق الله العظيم حين يقول « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وفي عهد الدولة الاموية ظهرت على مسرح الاحداث مذاهب فكرية

---

(٢) الطبرى حـ ٥ ص ٧٠ ــ ٧١ ؛ ١٣٥

وسياسية وكلامية ، وانطلق الخـوارج من قماقمهم يثيرون الفتن والقلائل في كل مكان (٣) ، وظهرت بعض الاحزاب السياسية وفي مقدمتها الكيسانية والزيدية ، وانشطرت بعض هذه الاحزاب من داخلها الى عشرات الفـرق كما حدث بالنسبة للخوارج ، واعلن كثير من الموالى سخطهم على الدولة الامـــوية .

وعلى الرغم من الجهود التى بذلتها الدولة الاموية في توسيع رقعة الدولة الاسلامية الا ان هذه الثورات المضادة من الداخل ادت في النهاية الى زوالها سنة ١٣٢ هـ وقامت الدولة العباسية وشهدت قرنا كامـلا من اعظم فترات وجودها ، الا انها لم تلبث نتيجة تصدر العناصر الدخيلة لمقومات حياتها السياسية والعسكرية أن بدأ يدب الضعف الى كيانهـــا السياسي ، وتوارت أسماء الخلفاء وراء الاسماء الفارسية والتركيـــة والبويهية والسلجوقية ، حتى انتهى الامـر باغارات المغـول على الدولـة وانهاء وجودها السياسي في منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميـــلادى) .

ثانيا ـ العصبيات القبلية :

ان من يطلع على الصحيفة (او العهد) (٤) الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وســـلم بعد الهجرة ، والذى يعتبره المؤرخون اول دستور لاول دولة اسلامية ظهرت في الاسلام يجد أن هذا العهد قد أبرز اهتماما خاصا بالقضاء على العصبية القبلية وتنقية الانصار والمهاجرين من شرور أخطارها واحلال الوحدة العقيدية والايمانية مكانها ، الى درجة أنه وضع هذه الوحدة العقيدية قبل الروابط الاسرية نفسها ، فالمؤمنون المتقون على من بغى منهم أو ظلم او اثم أو افســـد بينهم ولو كان أحدهـم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن ، وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

---

(٣) ينظر بعض المستشرقين والمفكرين الى الخوارج نظرة تقدمية حين يعتقدون انهم يمثلون النظرية الجمهورية فى الحكم حين يجعلون من الخلافة حقا لكل مسلم حر ، لا ترتبط ايما ارتباط بالقرشية أو العروبة او الهاشمية

(٤) ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ٩٤ ـ ٩٨

غير انه حدث في عهد الخلافة الاموية . وفي اواخر الفرع السفياني ، ان انضم المضريون الى الزبيريين في المطالبة بخلافة «عبد الله بن الزبير» ووقف اليمنيون الى جانب الامويين ، وعادت لاول مرة نيران العداوة العصبية التى اخمدها رسول الله ، في موقعة « مرج راهط » التى ظلت رايتها الخلافية ترفع في كل موقع من مواقع الدولة الاسلامية ، من اقصي الشرق الى اقصي الغرب ، كلما قام الخلاف بين اليمنيين والمضريين ، الى الدرجة التى اعتبرها بعض المؤرخين اشبه بالداء العضال الذى كان يضعف من قوة الدولة ، ويؤثر على وحدتها وكيانها . لدرجة ان النداء الذى توارثه المضريون جيلا بعد جيل كلما قام الخلاف بينهم وبين اليمنيين او الكلبيين « يالثارات مرج راهط » . حدث ذلك في المشرق العربى وفي المغرب العربى وفي الاندلس ، بل ان من المؤرخين من يرد كثيرا من الاحداث الاندلسية الى هذه العصبية القبلية التى نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثالثا ـ الشعوبية :

الشعوبية حركة عدائية للعرب والعروبة ، وكانت كما قال البعض سمة حق يراد بها باطل استنادا الى قوله تعالى « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . ولكن هذه الحركة نبتت في اول الامر كظاهرة احتجاج ضد سياسة الدولة الاموية في فارس وما والاها من البلاد التى انضوت تحت الاسلام واتهموها باتجاهات عنصرية تقتصر على اسناد الوظائف الهامة في الدولة كأمارة البلدان وجباية الخراج والشرطة والحسبة والقضاء وقيادة الجند الى العناصر العربية . وقد اشتدت موجة الغضب الشعوبى حين اضطر بعض خلفاء الامويين بسبب الخوف من تناقص موارد بيت المال الى ابقاء الجزية عمن يعتنقون الاسلام من الموالى ، وان تظل اراضيهم اراضي خراجية ولا تتحول الى اراضي عشرية كتلك التى يفلحها العرب ، ويرى البعض ان ذلك كان من بين الاسباب التى جعلت الكثيرين من الموالى يساندون كل الثورات السياسية والدينية والمذهبية التى قامت ضد الدولة الاموية فوقفوا الى جانب الكيسانيين والخوارج واخيرا ساندوا العباسيين في دعوتهم ضد الامويين حتى سقطت الدولة الاموية سنة ١٣٢ هـ (٥) ولقد

---

(٥) هناك اتجاهات حديثة للرد على هذه الآراء وتبرئة الامويين من ذلك يمكن الاطلاع عليها في كتابى دولة بنى امية للدكتور نبيه عاقل وطبيعة الدعوة العباسية للدكتور فاروق عمر .

كان من المفروض ان تخف وطأة الشعوبية بقيام الخلافة العباسية ـ اذا صح ما وجه الى الامويين ـ خاصة وان الكثيرين من الخراسانيين اشتركوا في المواقع التى ادالت الدولة الاموية حتى ان بعض المتطرفين يذكرون ان العباسيين استعانوا بالمطارق الفارسية لدق أعناق الامويين .

غير ان الاتجاهات الشعوبية في الخلافة العباسية ازدادت استشراءا ، وخاصة بعد المواقف التى اتخذها خلفاء العباسيين من القيادات الفارسية التى ساندتهم في معركتهم مع الامويين وفي مقدمة هؤلاء « ابى سلمة الخلال » وزير آل البيت ، وأبى «مسلم الخراسانى» وقيادات «البرامكة» وغيرهم ورأينا الشعوبية تنتقل من مجرد نقد العرب والتحدث عن مثالبهم الى محاولة الحط من شأنهم والحديث عن جهالتهم وجلافتهم وسوء تدبيرهم ، وأخذت كتب الشعوبيين في مثالب العرب ونقائصهم تبرز الى الوجود ثم تطور الامر الى انتقال الشعوبية الى مرحلة الزندقة والتطاول على الديانة الاسلامية ، ونقد القرآن الكريم ، والعودة الى ايقاظ الديانات والمذاهب المجوسية القديمة ، وظهور الحركات العدائية للاسلام والمسلمين وفي مقدمتها حركات البابكية والحزمية والمقنعية والخراسانية الفاطمية التى تنتمى الى فاطمة بنت الخراسانى وغير ذلك من الحركات الهدامة في جسم الدولة ، مما دعا العرب وعلماء الفقة والكلام للرد على هذه السموم العاتية بالقول والحوار والمؤلفات، وانشأ المهدى العباسي ديوانا خاصا بهؤلاء الشعوبيين الزنادقة ، كانت مهمته محاولة اقناع هؤلاء بالعودة الى الرشد والرد على المفتريات واثارة الحوار حتى اذا لم يجد كل ذلك نفعا سيقوا الى صاحب الزندقة ليقتلوا كما حدث بالنسبة لابن المقفع وبشار بن برد (٦) .

رابعا ـ طموحات العناصر الداخلية :

الاسلام دين عالمى شامل يتسع لكل الناس والشعوب والامم والقبائل، مصداقا لقوله تعالى «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» . ومن هذا المنطلق كان رفض الاسلام للتمييز العنصرى والتفرقة بين الناس على اساس من السلالة او اللون او الثروة ولذلك فان مجرد دخول وانضواء عناصر وشعوب وأمم في الاسلام وانخراطها في اطار الدولة الاسلامية لا يشكل تهديدا او خطورة على الدولة ، بل على العكس من

---

(٦) انظر الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع للقاسم بن ابراهيم .

ذلك يؤكد شمولية وعالمية الاسلام ، وهى طبيعة الامور في اطار العقيدة ، وكثيرا ما قام مسلمون من غير العرب بأدوار ريادية في الفكر والعلم والسياسة والحرب، بل ان معظم علماء العلوم العقلية والنقلية كانوا من بين هذه الشعوب الاسلامية. ولكن الخطورة تكمن حين تتحول بعض هذه العناصر « بعيدا عن سماحة الاسلام » تتحول الى ادوات لاضعاف نظام الدولة الاسلامى كما حدث في محاولات بعض المتطلعين من زعماء الخراسانيين في الدولة العباسية ثم تسلط الاتراك والبويهيين وغيرهم مما ادى الى اضعاف الخلفاء العباسيين، وانهاء الدولة العباسية على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م .

لقد كانت اطماع قيادات هذه العناصر في العصر العباسي الثانى عاملا ليس فقط في اضعاف امر الخلفاء العباسيين وانما في المساعدة على خلق كيانات ودويلات مستقلة اضعفت من وحدة الدولة الاسلامية .

خامسا ـ ظهور العديد من الدويلات الاسلامية المستقلة :

كان من نتيجة الحركات الشعوبية وطموحات زعامات العناصر الدخيلة ان تفككت عرى وحدة الدولة الاسلامية شرقا وغربا ، وبدأت الصراعات المختلفة تقوم بين هذه الدول وبعضها وان الدارس لتاريخ الدولة الاسلامية ابتداء من العصر العباسى الثانى يلمس الى حد كبير قيام هذه الدويلات وسقوطها وصراعاتها وخلافاتها مما كان له تأثير كبير على وحدة الدولة الاسلامية ابتداء من العصر العباسي الثانى . ونحن لا ننكر ان بعض هذه الدويلات قد وصلت الى حد من الازدهار السياسي والفكرى ، بل ان كثيرا من عمليات التوسع الاسلامى شرقا وغربا قامت على اكتاف هذه الدول، ولكنها في النهاية لم تكن الا عاملا من عوامل الضعف والتفكك العام في محيط الدولة الاسلامية . وما يقال عن المشرق العربى يمكن ان يقال عن المغرب العربى ، والاندلس خاصة بعد سقوط الخلافة الاموية الاندلسية سنة ٤٢٢ هـ وقيام الدويلات المستقلة في ظل نظام اقطاعى اتاح في النهاية للقوى المسيحية المعادية انهاء الوجود الاسلامى في الاندلس .

سادسا ـ عدم الادراك الواعى لفلسفة العقيدة والفكر الاسلاميين :

سبق ان تناولنا بالحديث عدم وجود اى تناقض بين العقيدة والفكر في الاسلام ، وان الدين الاسلامى دين شمولى يجمع بين الدين والدنيا مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم « اعمل لدينك كأنك تموت غدا واعمل لدنياك

كأنك تعيش ابدا » . وليس ابلغ من هذا الحديث دليلا على انه لا رهبانية ولا كهنوتية ولا انعزالية في الاسلام ، ولكن بعضا ممن لم يكن عندهم تصور واضح لفلسفة العقيدة والفكر الاسلاميين تصور لفترة من الفترات ان الدين الاسلامى يقتصر على مجرد العبادات الظاهرة وانه يتعارض مع مظاهر التطور العلمى والفكرى الانسانى ، ونحن لا ننكر على الدولة العثمانية مثلا دورها القيادى في الذود عن كثير من الاراضي الاسلامية ضد الهجمات الصليبية الشرسة الآتية من جانب الاسبانيين والبرتغاليين عقب نجاحهم في ازالة الدولة الاسلامية في الاندلس ، والحيلولة دون الافكار الاجرامية ضد الاماكن المقدسة ، ولكن عدم الادراك الحقيقى لفلسفة وفكر الاسلام وقف حائلا دون عمليات التطور الفكرى والحضارى ، في وقت بدأت فيه الحركات السياسية والانقلابات الصناعية تجتاح اوربا مما ادى الى اصابة العالم الاسلامى بظاهرة التخلف الحضارى وقد أتاح ذلك للاستعمار الاجنبى استغلال هذا الركود والجمود لبسط ظلاله على كثير من البلاد الاسلامية الواقعة في اطار الدولة العثمانية .

العوامل الخارجية

أولا : العدوان المغولى والصليبى والاستعمارى :

مهدت كل هذه العوامل الداخلية او بعضها ان تتعرض الدولة الاسلامية لموجات متوالية من العدوان الخارجى باشكاله المادية العسكرية والاقتصادية واشكاله الفكرية بأبعادها المختلفة .

ومن القوانين الاجتماعية والتاريخية المعروفة ان العدوان على اية امة من الامم يبدأ اولا من الداخل بل ان من النظريات الحديثة في تاريخنا المعاصر ان الغزو كله يبدأ وينتهى من الداخل وفي الداخل .

وهكذا تعرضت الدولة الاسلامية للعدوان الخارجى عليها اعتبارا من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وتمكن المغول من تقويض الدولة العباسية بعد ان استمرت فى الحكم قرابة خمسة قرون ونصف ، ثم حاولوا اجتياح بقية العالم الاسلامى لولا وقوف مصر الاسلامية ضد هذا الغزو وانهاء هذا الزحف المدمر للحضارة الاسلامية عند عين جالوت في النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى .

في اثناء ذلك كانت الصليبية المسيحية تستعد لعدوانها على العالم الاسلامى الذى كان يقترب رويدا رويدا من رئتيها المسيحيتين في روما وبيزنطة ، وظهرت في اوربا موجة صليبية عاتية تتجه للقضاء على الكيان الاسلامى ، وقد بدات هذه الموجة اول ضرباتها في المغرب الاسلامى والاندلس في محاولات للقضاء على الوجود الاسلامى في اسبانيا ، وفي نفس الوقت كانت الحملات الصليبية تتابع واحدة بعد الاخرى ، الى ان تمكنت الوحدة المصرية السورية بقيادة صلاح الدين الايوبى من وقف هذا المد الصليبى .

وليس من شك في ان ذلك كله قد اصاب العالم الاسلامى بضربات شديدة في مختلف مواقعه مما اتاح للحركة الاستعمارية المادية والاقتصادية أن تجد سبيلها الميسر الى مختلف اراضيه وتحولت الشعوب الاسلامية الى افواه مستهلكة لكل ما ينتجه الانقلاب الصناعى الاوروبى ، وبدا الامر باحتلال انجلترا لعدن سنة ١٨٣٩ م ومحاولة فرض السيطرة على شرق وجنوب شرق الجزيرة العربية ، واحتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ م وتونس ١٨٨١ م ، وبريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ثم لم تلبث ان احتلت ايطاليا ليبيا واحتلت فرنسا مراكش ، ولم تكد تنتهى الحرب العالمية الاولى حتى كان الهلال الخصيب كله تحت الاحتلال الاجنبى .

ثم كانت الطامة الكبرى حين تمت الزيجة السياسية بين الامبريالية الاستعمارية والصهيونية العالمية في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، وكانت هدية هذه الزيجة تقديم فلسطين للصهيونية العالمية، ومنذ ذلك الوقت والامبريالية الاستعمارية والصهيونية العالمية تشكلان أكبر خطر يهدد العالم العربى والاسلامى بوجه عام .

ثانيا : حركة الاستشراق :

ولم يقتصر العدوان الخارجى على العالم الاسلامى في جانبيه المادى والعسكرى وانما تمثل في عملية التسرب الفكرى والثقافى التى تعتبر أشد خطرا وفتكا فمنذ القرن الخامس عشر الميلادى ومحاولات المخاطرين والمكتشفين الاجانب مستمرة في العدوان على تراثنا الفكرى والثقافى بطرق واساليب مختلفة،منها ما يتسم بالعلنية،ومنها ما يتسم بالسرية،وانشئت كليات ومعاهد الاستشراق في دول اوربا الغربية ، حيث كان ينقل اليها ما امكن حمله من مصادر التراث الاسلامى .

وكثيرا ما قرانا وسمعنا لعشرات البعثات الاستكشافية والارساليات التبشيرية الموفدة من المعاهد الاستشراقية والهيئات الكنسية ، التى كانت تستهدف في الاصل الاستئثار بالمصادر الاسلامية ، وغسل العقول البدائية من أركان العقيدة ، وانشئت المؤسسات التربوية والتعليمية والصحية في الداخل ، كما الفت الكتب والمراجع المليئة بالمغالطات المكشوفة في التاريخ الاسلامى .

وليس من شك في أن ما قامت به الجامعات الاسلامية ، ومازالت تقوم به من كشف لهذه المغالطات العلمية بالاساليب العلمية الصحيحة،انما يمثل دورا اساسيا في اضعاف موجات الالحاد والتشكك والتيارات الفكرية التى قد يتعرض لها الشباب الاسلامى .

ثالثا : بعد مسافة التخلف بين الدول الصناعية والدول الاسلامية النامية :

يضاف الى كل ما سبق بعد مسافة التخلف بين الدول الصناعية والدول الاسلامية النامية ، ذلك البعد الذى يزداد اتساعا يوما بعد يوم بسبب عملية التطور العلمى والتكنولوجى عند الدول الصناعية خاصة وان هذه الدول تسعى جاهدة للحيلولة دون المحاولات التى تبذلها الدول الاسلامية للحصول على التكنولوجيا الحديثة ، وانتقالها من مرحلة الدول المستهلكة الى مرحلة الدول المنتجة .

وعلى الرغم من الخلافات التى قد تبدو بين الكتل المتصارعة في عالم اليوم الا انها تتفق على شيء واحد وهو الوقوف في وجه هذا العملاق الاسلامى بشتى الطرق لانهم يقراون التاريخ ويعلمون الى اى حد تمتد جذور هذا العالم الاسلامى الى الاعماق .

ولعلنا نذكر في هذا المجال ذلك المؤتمر الذى عقد في لندن سنة ١٩٠٧ واكتملت فيه كل الدول الصناعية الاستعمارية برياسة كامبل بنرمان رئيس الوزراء البريطانى وكان هذا المؤتمر ينظر في الوسائل التى توصل الى الابقاء على الظاهرة الاستعمارية في مواجهة حركات التحرر ، وانتهى النقاش الى أن العالم الاسلامى يشكل الخطر الرئيسي لمستقبل الدول الصناعية ، وكانت العقيدة القرآنية واللغة المشتركة من بين الاسس التى رؤى التركيز على ضرورة اضعافها وتصفيتها ووضعت سياسة هذا المؤتمر على اساس تشجيع

اللهجـات العامية . واضعاف العقيدة الاسـلامية واثارة الطائفية الدينية والعنصرية وخلق دولة يهودية في قلب هذا العالم الاسلامى تمتص كل موارده القومية الرئيسية ، وزيادة مساحات التخلف بين الدول الصناعية المتقدمة والدول الاسلامية النامية .

وعلى الرغم من امتلاك العالم الاسلامى لاكبر نسبة من اعظم مصادر الطاقةوهو البترول ، واعتماد الدول الصناعية على هذا النفط الا انالسياسة المخططة لهذه الدول بمؤسساتها الضخمة وشركاتهاالعالميةوامكانياتهاالواسعة تحول دون شك في الوصول الى ما تصبو اليه الدول البترولية الاسـلامية من تطور وتقدم يواكب التطور والتقدم العالميين .

ولا زال الصراع محتدما بين الجانبين الدول الاسلامية البترولية تسعى الى توكيد حقوقها ، والحصول على عائداتها كاملة.والدول الصناعية متشبثة بسياستها التقليدية التى تقوم على أن الشرق شرق والغرب غرب .